الحلقة (٢٠)

في هذه الحلقة سنتكلم عن مسألة كلام الله سبحانه وتعالى وأنه صفة له وليس بمخلوق.

فاستدلال المعتزلة بأن الكلام مخلوق لله سبحانه وتعالى وأنه ليس بصفة من صفاته،

استدلوا بقول الله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، قالوا وزعموا أن القرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم "**كل**" فيكون مخلوقا، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله سبحانه وتعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله، فأخرجوها من عموم "**كل**" وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياءُ المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، يقول الله تعالى {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} ففرّق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقا للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى مالا نهاية له، فيلزم التسلسل وهو باطل، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته مخلوقه، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}فيكون مخلوقا بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

إذن استدلال المعتزلة بقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}فقالوا : القرآن شيء، والقرآن كلام الله فيكون داخلا في عموم "**كل**" فيكون مخلوقا، تعالى الله عن ذلك، وهم يقولون وينكرون أن تكون أفعال العباد مخلوقه لله، فسبحان الله كيف أخرجوا أفعال العباد من كونها مخلوقة لله وأدخلوا القرآن وكلام الله في عموم "**كل**" التي تشمل مخلوقات الله سبحانه وتعالى؟! كيف يصح أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلما بكلام يقوم بغيره؟! ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من كلام في الجمادات كلامه، وكذلك ما خلقه في الحيوانات، ولا يفرق حينئذ بين نَطق وأنطق، وإنما قال في الجلود {أَنْطَقَنَا اللَّهُ} ولم تقل نطق الله، بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذبا أو كفرا أو هذيان، تعالى الله عن ذلك، وقد طرّد ذلك الاتحادية، ساروا عليه، فقال **ابن عربي** وهو محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المعروف بابن عربي **وليس ابن العربي** قال:

وكل كلام في الوجود كلامه*** سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحدٌ بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير، لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره، ولصح أن يوصف الله سبحانه وتعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر.

بمثل ما مر **ألزم الإمام عبد العزيز الكناني المكي بشر المريسي بين يدي المأمون** -والمأمون من الخلفاء الذين تولوا كبر مسألة القول بخلق القرآن، أي نفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، تولاها المأمون وامتحن الناس عليها، وممن امتحن الإمام أحمد وامتحن أئمة أهل السنة فيها وألزمهم بالقول

بخلق القرآن، وعلى هذه المسألة **قتل أحمد بن نصر رحمه الله ثم صلب بعد ذلك**- عبد العزيز المكي ألزم بشر، بشر ممن أقنع المأمون بهذا القول، قول المعتزلة إنكار صفه الكلام لله سبحانه وتعالى والقول بخلق القرآن، فتنازع عبد العزيز الكناني وبشر المريسي فألزمه بعد أن تكلم معه والتزم معه أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتي بنص التنزيل، -عندما نازع عبد العزيز الكناني بشرا المريسي بالقرآن أفحمه وألقمه الحجر فانقطع- فقال بشرٌ للمأمون يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتي بنص التنزيل ويناظرني بغيره، يريد الأدلة العقلية، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة، وإلا فدمي حلال، قال عبدالعزيز تسألني أم أسألك -أجابه لما يريد من الأمور العقلية والمنازعة العقلية- فقال بشر: اسأل أنت، وطمع في عبدالعزيز الكناني، فقال: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها، إما أن تقول أن الله خلق القرآن -وهو عندي أنا كلامه في نفسه- أو خلقه قائما بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره، فقال بشر: أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشرا فقد انقطعت حجته، فقال عبدالعزيز الكناني: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال، لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة، ولا يكون منه شيء مخلوقا، وإن قال خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، وإن قال خلقه قائمٌ بنفسه وذاته فهو محال، لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذا الجهات أن يكون مخلوقا؛ عُلم أنه صفه لله عز وجل، وهذا مختصر كلام عبدالعزيز المكي الكناني في كتابه (الحيدة).

عموم "**كل**" في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن ألا ترى إلى قول الله تعالى {**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**}، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك لأن المراد تدمرُ كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة، وما يستحق التدمير، وكذا قوله تعالى حكاية عن (بلقيس) {**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**} المراد من كل شئ يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، وإلا نعلم أن بلقيس لم يكن لها ملك بيت المقدس، وقد كان فيه سليمان عليه السلام، إذن أوتيت من كل شيء يحتاج إليه الملوك من النعيم وأمور الدنيا والقوة والجيش والسلاح والغلبة والتمكين واستقرار الملك، كل ذلك داخلاً في أوتيت من كل شيء، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر المُلك، غير محتاجة ما يكمُل به أمر مُلكها، ولهذا نظائر كثيرة.

المراد من قوله تعالى {**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**} أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله سبحانه وتعالى فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم: الخالق تعالى وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يُتصور

انفصال صفاته عنه كما تقدم الإشارة إلى هذا بقوله: "**مازال بصفاته قديما قبل خلقه، بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم، فإذا كان قوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} مخلوقا لا يصلح أن يكون دليلا**".

هذا بالنسبة لاستدلال المعتزلة بقوله سبحانه وتعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، فجعلوا القرآن شيء، وهو داخل في الخلق، ومعلوم بطلان وفساد هذه المقولة البدعية والضالة، إذ فرقوا بين القرآن وفرقوا بين أفعال العباد، فأخرجوا أفعال العباد من "كل" وأدخلوا فيها القرآن، وهذا تناقض عجيب ظاهر الضلال والزيغ نسأل الله السلامة.

فساد استدلال من يقول بخلق القرآن

استدلالهم بقول الله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، يقولون أي: إنا خلقناه قرآنا عربيا، فما أفسده من استدلال فإن (جعل) **إذا كان بمعنى (خلق) يتعدى إلى مفعول واحد**، كقوله تعالى {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} وقوله {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ}، **وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعني (خلق)**، قال تعالى {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ} وقال تعالى {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} وقال {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا)} ونظائر ذلك كثير. وكذا قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، ، إذن إذا كان (**جعل**) في معنى خلق تعدى إلى مفعول واحد، أما إذا تعدت إلى مفعولين فإ نها لا تكون بمعنى خلق، فليست بدليل على خلق القرآن وهي متعدية إلى مفعولين.

وما أفسد استدلالهم بقول الله تعالى {نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة، فسمعه موسى منها، وعموا -القائلين بخلق القرآن عموا- عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ} والنداء هو الكلام من بُعْد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: { فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقا في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة يا موسى إني أنا الله رب العالمين، وهل قال إني أنا الله رب العالمين غيرُ رب العالمين؟! ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله، لكان قول فرعون أنا ربكم الأعلى صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد: أن ذلك كلامٌ خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله.

إذن ظاهرٌ بطلان استدلالهم بأن الله خلق الكلام في الشجرة، وإن قيل وقد قال الله تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} هذا يدل على أن الرسول أحدثه؟! إما جبريل أو محمد صلى الله عليه وسلم؟!

قيل يرد عليهم بأن ذكر الرسول معروف ومعرّف بأن الرسول مُبلّغ عن مرسله، لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبي، فعُـلم أنه بلغه عن من أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه، وأيضا فالرسول في إحدى الآيتين (جبريل)، وفي الأخرى (محمد) فإضافته إلى كل منها تبين أن **الإضافه للتبليغ**، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر، وأيضا فقوله "رسول أمين" دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمين على ما أرسل به، يبلغه عن مُرسله، وأيضا فإن الله قد كفّر من جعله قول للبشر، والرسول صلى الله عليه وسلم بشر، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه قد أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول إنه قول بشر أو جني أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا، ومن سمع قائلا يقول: **قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل**

قال هذا الشعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول (**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**) قال هذا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن سمعه يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قال هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال لا أدري كلام من هذا، ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذبه، ولهذا من سمع من غيره نظما أو نثرا يقول له هذا كلام من؟ أهذا كلامك أم كلام غيرك؟